ارکان النهضة الحديثة

الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ـ١٨٧١)

الرجل ـ « العالم » ـ الشاعر

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

١

هو من اشهر اعلام اللغة العربية في القرن الماضي ، ومن اثبت اركان النهضة الحديثة في المحافظة على القديم ، وتحدّي القدماء . تحدّى امتن منشئي العرب في انشائهم ، وعارض افخم شعرائهم في شعرهم ، واقتفى اثبغ « علمائهم » في « علومهم » المختلفة من صرف ، ونحو ، وبيان ، وبديع ، وفقه ، وطب . وكأنّ الطبيعة شاءت مناصرته في هـذا الاقتفاء ، فارادت ان يقتفي مشاهير الادباء في موتهم ايضا ؛ فرمته ، كما رمت قبله الجاحظ ، وابن دريد ، وابن عبد ربه ، بفالج عطّل نصف جسمه على مدة سنتين . فعاش ومات إمـام المحافظين المقتفين من ارباب النهضة ، سواء في شخصيته ، او في « علومه » ، او في شعره :

الرجل

اصل أسرته

« يازجي » كلمة تركية معناها « كاتب » دُعي بها احد جـدود الشيخ ناصيف اذ كان يكتب لبعض عمّال الاتراك ، في اواسط القرن الثامن عشر . والاسرة اصلها من روم حمص ، كثرت فروعهـا في تلك المدينة حتى اواخر القرن السابع عشر ، فهاجر منهـا سعد — وهو جدّ جدّ الشيخ ناصيف — مع جماعة من اهله ، الى لبنان ؛ فسكن بعضهم في ناحية الغرب الاقصى من

الشيخ ناصيف اليازجي
١٨٠٠ – ١٨٧١

ساحل لبنان ، وسار الآخرون الى وادي التيم . وكان كاتب العامل التركي من الفرع المهاجر فلصق لقب « اليازجي » بذريته التي تركت المذهب الارثوذكسي وجاهرت بالكاثوليكي ، في اواخر القرن الثامن عشر

شبابه (١٨٠٠—١٨٢٨)

نشأته

ناصيف بن عبدالله ، بن ناصيف ، بن جنبلاط ، بن سعد اليازجي ، وُلد في كفرشيما من قُرى الساحل اللبناني ، على مقربة من بيروت جنوباً ، في ٢٥ اذار سنة ١٨٠٠ . وكان ابوه عبدالله من اطباء عصره المعروفين على مذهب ابن سينا ، درس اصول الطب القديم على بعض رهبان الشوير واخذ بالاختبار حتى برع فيه . وكان يميل ، مع ذلك ، الى الادب ، وقد يتعاطى النظم اذا ما سنحت الفرصة

فنشأ الولد في محيط مشبع بروح العلم والدرس . ولم يلبث ان تلقى مبادئ القراءة والكتابة من راهب لبناني اسمه القس متى الشبابي ، فوجد من نفسه ميلاً الى المطالعة والتحصيل ، فشرع يقرأ كل ما وقع تحت يده من الكتب ، وهي نادرة في تلك الايام حتى انتهى الميسور منها ، فأقبل على أديار الرهبان يستعير منها ما امكنه . وكان في خلال ذلك يدرس الطب على والده ، ويجتهد في تحصيل ما يقف عليه من فن الموسيقى وترقيع الالحان . وقد ساعدته ذاكرته في كل ذلك مساعدة فعّالة ؛ فقلّما كان يحتاج الى قراءة الكتاب غير مرّة واحدة . وكان ، اذا صادف مؤلفاً نفيساً وخاف ضياعه او خروجه من يده ، ينقله بخط جميل واضح على القاعدة الفارسية

في دير القرقفة (١٨١٦ — ١٨١٨)

ولم يبلغ السادسة عشرة من عمره ، حتى اشتهر ذكره في قريته كفرشيما وما جاورها من قرى الساحل . وكان قد بدأ ينظم بعض « المطالع » من المغنّى ، او الشعر العامي ، وبعض المقطعات الشعرية ، فاخذ اهل وطنه يشيرون اليه بالبنان ، ويُعرف « بالعلم » ، والدرس ، وحسن الخط ايضاً . فدعاه البطريرك

اغناطيوس الخامس الملكي الكاثوليكي ليكون كاتباً عنده. وكان مقامه اذ ذاك في دير القرقفة في اعالي كفرشيما. فسار ناصيف اليه ولبث عنده مدة سنتين. ثمَّ انتقل البطريرك الى الزوق ، فترك كاتبنا وظيفته ورجع الى قريته، يتابع الدرس والمطالعة وقرض الشعر

عند الامير بشير (١٨٢٨ - ١٨٤٠)

وحدث بعد مدَّة ان الامير بشير الكبير عاد الى مقرّه منتصراً على اعدائه ومناوئيه ، في الحروب والمناوشات التي تعدَّدت قُبيل سنة ١٨٢٤ ، فساغتنم الشيخ هذه الفرصة وامتدح الامير المذكور بقصيدة طويلة ابدع فيها ما شاء له خياله الذي كان لا يزال فتيًّا غير مضبوط ، وثقافته المشبعة بروح المتنبي، فقال في مطلعها :

جنيك ! جنيك ! هذا النصرُ والظفرُ ! فنامْ اذن انت ! بل فلتنم البشرُ !

فوقعت القصيدة من الامير موقعاً حسناً ، والفت نظره هذا الشاب المتعلِّم ، فمال الى استخدامه. ولكنه لم يستدعه قبل السنة ١٨٢٨ ، على قول المؤرخين . فاقام الشيخ ناصيف في ديوان الامير ، في بيت الدين ، اثنتي عشرة سنة ، الى ان كانت سنة ١٨٤٠ المشؤومة على امير لبنان ، وكان القرار بنفيه الى مالطة ، فدكَّ عرش مجده ، وتفرَّق اعوانه ومن جملتهم الشيخ ناصيف

ولكن على الرغم من ملازمة شاعرنا الامير طول هذه المدة ، لا نجد له في امره الَّا المدائح القليلة . ممَّا يستغربه الدارس بادئ بدء ، ولكنه لا يلبث ان يفهم السبب ، اذ يعلم ان شاعر الامير الخاص كان المعلم بطرس كرامه ، فلم يرغب الشيخ ناصيف في منافسته اتقاء لاحفاظ المولى . على انه كان لا يتراجع امام رغبة الامير في اقامة تلك الحفلات الادبية ، والمناظرات الشعرية التي اشار اليها لامرتين اثناء وصفه لقصر بيت الدين . وللشاعر الافرنسي الكبير كلام عن احد شعراء الامير لا ينطبق الَّا على الشيخ ناصيف ، فيدلّ على ما كان له من المنزلة في ذاك الوقت . قال لامرتين ما تعريبه :

« كان بين كتاب الامير آنذاك شاعر من اشهر شعراء البلاد العربيـة . ولكني لم اعرف ذلك الّا بعد حين . ولمّا عرف هذا الشاعر ، بواسطة بعض ابناء العرب من السوريين ، انني انا ايضاً من شعراء اوربة ، بعث اليّ بابيات تشوبها الزخرفة والتكلّف ، ويشينها التلاعب اللفظي ؛ وتلك صفات اللغـات والمدنيّات الشائخة . ولكنّ فيها ، على الرغم من ذلك ، مقـدرة في الفن ، وتناسقاً في الافكار ، ارفع بكثير ممّا نتصوّره عنها في اوربة » (١

في بيروت (١٨٤٠—١٨٧١)

حياة الدرس والتأليف — في الجمعية السورية

وبعد ارتحال الامير بشير من لبنان ، انتقـل الشيخ ناصيف بعائلتـه الى بيروت ، وهي عاصمة العلم ، ومدينة النهضة ، فاتصل بمشاهيرها من الكتّاب والشعراء ، واقبل بباحثهم وبجالسهم ، صارفاً وقته بالدرس والتأليف في جميع « العلوم » التي أُلّف فيها العرب . وكان اكثر اجتماعـاته بالمرسلين الاميركيين ومن اليهم من علماء اللبنانيين . فكان من مؤيدي الدكتور عالي سميث في انشاء الجمعية السورية سنة ١٨٤٧ ، فدخل فيهـا وانتخب عضواً في عمدتهـا الخصوصية (٢

حياة التعليم — المراسلات الأدبية

ولمّا انشأ المعلم بطرس البستاني مدرسته الشهيرة المعروفة بالوطنية سنـة ١٨٦٣ ، انتدب صاحب الترجمة لتدريس الصف الاول العربي فيهـا ، فكان يدرّس ارجوزته المعروفة في النحو . وقد تخرّج عليه اذ ذاك عدد عـديد من نوابغ الكتاب والشعراء

وفي السنة التالية ، اذ انشأ البطريرك غريغوريوس يوسف المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك ، دعا اليها الشيخ ناصيف فكان يدرّس في المدرستين معاً . وبعد ذلك دخل في الكلّية الاميركية فدرّس فيهـا مدّة ايضاً . وكان يقف على

١) Lamartine : Voyage en Orient, Paris, 1841. p. 230–231

٢) راجع المشرق (١٢ [١٩٠٩] : ٤٠)

منشورات المطبعة الاميركية ولاسيما الكتاب المقدّس الذي كان باشر ترجمته الدكتور سميث والمعلم بطرس البستاني سنة ١٨٤٧ . وفي تلك الاثناء ألّف اكثر كتبه فاشتهر بها وبالتدريس ، حتى سار ذكره من قطر الى قُطر ، وراسله كبار الادباء والشعراء في الشرق والغرب ، فكانت تأتيه قصائد المدح والتقريظ من بغداد ، والموصل ، ومصر ، والمغرب ، وانحاء لبنان وسورية . واشهر مراسليه : عبد الباقي العمري ، وعبد الحميد الموصلي ، وحبيب البغدادي ، وشهاب الدين العلوي ، من بغداد ؛ عبد الهادي نجا الابياري ، وعبد الرحمن الصوفي ، ومحمد عاقل كاشف زاده ، من القطر المصري ؛ احمد فارس الشدياق ، ومارون النقّاش ، واسعد طراد ، وخليل الخوري من اللبنانيين النازحين ؛ ابراهيم الاحدب ، ومحمد المؤقت من طرابلس ، وكثير غيرهم . وقد راسل بعض المستشرقين ايضاً ذكر منهم البارون سلفستر دي ساسي المستشرق الافرنسي الكبير

وكان منزله ، الكائن في زقاق البلاط جنب مدرسة المعلم بطرس البستاني ، محطّاً لرحال طلّاب المعارف يتوافد عليه العلماء من انحاء مختلفة من لبنان ، ويزوره كبار الرجال اثناء مرورهم في بيروت ، فيحيّون شيخه العالم الجليل

مرضه الاخير (١٨٦٩-١٨٧١)

ولم يزل الشيخ ناصيف محور تلك الحركة الفكرية حتى ليلة الثلاثاء في ١٦ آذار سنة ١٨٦٩ ، فشعر بدوار وثقل شديد في الراس مع ضعف في البصر والذاكرة ، وتنبّه مؤلم في الحواسّ ، فعقبته سكتة نزيفية انتبت بعد ٣٦ ساعة بفالج نصفي عطّل الشطر الايسر من الجسم . فجزع طلّابه ومريدوه ، وخافوا على تلك الجذوة ان تخمد . على ان الامل لم يلبث ان عاد قليلًا اذ افاق الشيخ بعد ايام ، وفي عينيه اماثر سلامة العقل ، ولكنه لم يكن قادراً على الكلام . وكان ممّن حضره في تلك الحالة الاديب سليم دياب ، فاراد اختبار حالته العقلية فسأله عن اعراب « يَذْهَبْنَ » من القول : «النساء يَذْهَبْنَ» ، فاشار الشيخ بالدواة والقرطاس وكتب :

« يذهب مبني على السكون ، وهو في موضع الرفع بالتجرد . والنون في موضع الرفع بالفاعلية . وهما في موضع الرفع بالخبرية عن النساء . ففيها بناء من ثلثة اماكن ، واعراب من ثلثة اماكن . »

فتحقق صحة عقله ، وعجب من ثبات جنانه وذاكرته (١

ولم يمضِ القليل على ذلك حتى انحلّت عقدة لسانه وامكنه الافصاح عن مراده ، فاقبل يملي بعض الابيات التي كان ينظمها وهو في تلك الحالة . وظلّ على ذلك نحو السنتين ، حتى فاجأهُ المصابُ الأليم بوفاة ولده الشيخ حبيب في ٣١ كانون الاول ١٨٧٠ ، وهو في ريعان الشباب . وكان ابوه يعلّق عليه الآمال الكبيرة لطيب اخلاقه ، وسرعة فهمه ، وما حوى في صدره من المعارف الكثيرة . فضاع ذاك الامل . فحزن الشيخ حتى لم يمكنه الصبر بعد ، بل كان دائم الحزن ، دائم البكاء ، شهرًا كاملًا ، الى ان وافى شباط ١٨٧١ فحدث له سكتة دماغية قوي على احتمال تأثيرها مدة اربعة ايام ، افاق بعدها منتعشاً قليلًا . ولكنها راجعته مساء الثامن من شباط المذكور ، فأطفأت ذاك المصباح المنير

دفنه — قبره

كان وقع المصاب شديداً في بيروت ولبنان ، فهرع القوم على اختلاف الطبقات والطوائف ، لوداعه . وساروا في جنازته بمشهد حافل تتقدمه تلامذة المدارس بالنشاد متاحة شجيّة ، من الكنيسة الى مقبرة الروم الكاثوليك في الزيتونة ، حيث دُفن في ضريح خاص معروف الى اليوم ، وعليه هذه الابيات :

هذا مقامُ اليازجيّ ! فقف بهِ ... وقل : السلام عليك ، يا علمَ الهُدى
حرَمٌ تحجّ اليهِ ارباب المجى ... ابدًا ، وتدعو بالمراحم لن مَدَا
هو مغربُ الشمس التي كم اطلعت ... في شرق آفاق البلاغة ، فرقدا
فخرُ النصارى ، صاحبُ الدرر التي ... ضربت على ذكر البديع واحمدا .
هذا عماد العلم مال به القضا ... فأمال ركنًا للعلوم مشيّدا
احمى ثراهُ البحر ، جانبَ تربةٍ ... هي مجمع البحرين أشرف مجتدى .

(١) راجع الجنان (٢ [١٨٧١] : ١٩١)

فعليك ، يا ناصيف ، خيرُ تحيّةٍ طابت بذكرك ، حيثُ فاح مردّدا :
لو انصفتك النائباتُ ، لغيّرت عاداتُها ، ووَقَفْنَ حادثةَ الردى .
تتنزّل الاملاكُ حولك بالرضى ويعود فوقك ، باكرًا ، قطرُ الندى
وجميل حظّك في الاعالي رحمةٌ ، أرّخ ، وذكرٌ في الصحائف خُلّدا !

١٨٧١

صفاته واخلاقه

كان الشيخ ناصيف معتدل القامة فوق الربعة قليلًا ، اسمر اللون ، اسود الشعر ، مهيب المنظر . وكان محافظاً اشدّ المحافظة على لهجة قومه ، متقيّداً لاجداده في جميع عاداتهم من الاكل ، والشرب ، واللبس ، وسائر المظاهر الخارجية . فكان يبدو امام تلاميذه لابساً عمامة كبيرة سوداء ، وجبةً طويلةً سابغة على القفطان القديم ، وصرمايةً حمراء . ذلك على قلة من كانوا يظهرون بهذا الزيّ القديم في عصره . ولكنه كان متشبّثاً بعاداته هذه لا يتركها ، وقد قال مرة امام تلميذه وابن وطنه الدكتور شبلي الشميل ، على سبيل المزاح : « لو فُقد الشاش لاعتممتُ بالقَمْأوعة » والقطُوعة ، في لغة عامة لبنان ، قطعة من الحصير العتيق (١ . الا انه لم يطلق لحيته قط بل كان يحلقها حتى آخر حياته

اما عادته في الكتابة فكانت على الطريقة القديمة ، اي بان يجلس على الارض متربعا ، فيمسك القرطاس في يده مسندا اياها الى ركبته ، ويتناول قلم الغزّار من منخب دواته النحاسيّة التي لم تكن تفارق وسطه . وكان له جلد غريب على تلك الجلسة وإطالتها لتحسين الخطّ ونقل الشيء الكثير ، حتى قيل ان ما نقله من الكتب يبلغ محمول جملين . ومن عاداته ان يكتب ما اعجبه بخطّ يده الجميل انصرافاً منه عن الاملاء ، لانه كان اجشّ الصوت غير فصيح اللسان ، اذا تكلم تأنّى بحديثه واشاراته كي يفهم سامعه . وعلى الرغم من عدم مطابقة صوته للنغمات ، كان مولعاً بالموسيقى — وقد درس هذا الفن في بدء حياته كما قدمنا — مُغرماً بالغناء الحسن . ذكر الدكتور شاكر الخوري انه

(١) رواه افيكونت دي طرّازي : تاريخ الصحافة العربية ، الجزء الاول ، ص : ٨٨

كان في صفّه ، في المدرسة الوطنية ، احد التلامذة من اصحاب الصوت الجميل . فكان الشيخ ناصيف يلقّنه امامه التواشيح ليتعلمها وينشدها على الاصول(١

وكان مولعاً بالتدخين بالقليون تارةً وبالسيكارة اخرى . سواء كان ذلك في البيت ، او في السوق ، او في المدرسة . ولما كان يعلّم الصف الاول في المدرسة الوطنية ، كان يعهد الى احد تلامذته ، الدكتور شاكر الخوري ، في اشعال السيكارة او القليون ، فيذهب الى خارج الدرس ويشعله ، ويعود بعد ان يدخن فيه قليلاً .(١ وكان يعهد ايضاً الى غيره من كبار التلاميذ في امر لفّ السيكارة ، فيغافله بعضهم ويسرق قليلاً من التبغ يدخنونه خفيةً عن المعلمين . فشعر الشيخ مرّةً بتلاعبهم فنزع نتفته منهم ، ووضعها في الشيخ عبدالله البستاني ، لانه كان اصغر تلامذة الصفّ ، ولم يكن له رغبة في التدخين اذ ذاك . اما ولعه بشرب القهوة فلم يكن ليقلّ عن ولعه بالتدخين ، وهما امران يثقلان .

امّا ما سوى ذلك من اساليب التسلية والترويح فكان الشيخ ينفر منها . فيتجنّب جميع المجتمعات التي تُعقد في سبيل اللهو والمزح . ولا يتوقف في طريق ، ولا يمازح في سبيل ، بل كان ، بعد انتهاء الدرس ، يعود الى منزله الكائن قرب المدرسة ، فيقصد جنينته الصغيرة ويبدأ بالشغل فيها حتى يتصبّب العرق من جبينه . فيستريح قليلاً على حجر ، ملقياً معوله الى جانبه ، ظاهراً بكل مظاهر الفلّاح اللبناني النشيط .

هذا الشيخ ناصيف في بساطته الخارجية . ولم تكن صفاته الداخلية اقلّ بساطةً وصفاء نيةً ، فقد كان ثابت المحبة ، مخلص الصداقة ، رقيق القلب ، حسن التديّن ، مبالغاً في اجتناب الكذب ، كما ذكر عنه ابنه الشيخ ابراهيم ، لا يُعطي مالاً ولا يأخذ مالاً بالربى ، ولا يكتب صكّاً فيه ربى (٢ . يجمع الى ذلك رزانة المحضر ، وجد الحديث ، ورعة اللسان ، حتى انه لم يستعمل الهجاء في شعره ، على كثرة التجارب التي تعرض للشعراء في هذا الباب ولم

١) الدكتور شاكر الخوري : مجمع المدرّات ص : ١١٧

٢) راجع مقدّمة النبذة الاولى من الديوان ، ص : ت

يذكر المؤرخون عنه من هذا النوع الا بيتين ارتجلهما في بخيل ، على سبيل المداعبة ، وهما :

قد قال قومٌ : ان خبزك حامضٌ والبعض أثبت بالحلاوة حكمه
كذب الجميع بزعمهم في طعمه من ذاقه يوماً ليعرف طعمه؟

وكذلك لم يهجه احد من الشعراء احتراماً ، وتهيباً . وقد قال له احدهم يوماً ، على سبيل المزاح ، ان الشيخ ابراهيم الاحدب ، والشيخ يوسف الاسير يستعدّان لهجائه بقصيدة طويلة ، فتبسّم الشيخ ناصيف ، وقال :

ان ممدوحَ اربعين أميرًا لا يبالي بأحدب وأسير

قال ذلك موريّاً بلفظتي « احدب » و « أسير » . لان « الاحدب » في لغة « المنجّدين » من عامة اليهود ، تُطلق على قوس النـدّاف ، و « الاسير » على الضرّاب .

هذا وقد قرن الى تلك الصفات الحسنة صدق الرواية في الحديث ، ساعدته في ذلك ذاكرته الغريبة . فانه كان كثيرًا ما ينظم القصيدة فلا يكتبها حتى تبلغ البضعة عشر بيتاً . وقد ألّف المقامة اليامية ، وهي الحادية والخمسون من مجمع البحرين ، على ظهر الفرس اذ كان مسافرًا من بيروت الى بحمدون سنة ١٨٥٣ ، فلما وصل اخذ ورقة فكتبها . وكان يحفظ القرآن بتمامه ، وكثيرًا من الشعر القديم والحديث ولاسيما شعر المتنبي ، فضلًا عن النكات والنوادر والاخبار المتعددة في ادب العرب ، مما كان يجعل لحديثه لذة خاصة على الرغم من تلجلج لسانه . فكان اذا روى القصة سرد تواريخها ، واسماء اصحابها ، واسماء بلدانهم ، وكل ما يتعلق بهم فيشعر بها السامع كما لو حضرها .

وعلى الجملة فقد كان الشيخ ناصيف ، في القرن التاسع عشر ، مثالًا ساميًا للثقافة العربية التقليدية الخالصة

هذا هو الرجل المحافظ في مظاهره ومآتيه واخلاقه وصفاته ، وسندرس ، في العدد القادم ، « العالم » المحافظ ، والشاعر المحافظ .